الفصل الثامن

إلماعة ختامية عن الإلياذة والأوديسا

(١) نماذج منهما

١ ــ من الإلياذة

تعهد أخيلوس للكاهن بالحماية

« لا تخش شيئاً أيها الكاهن وقل لنا ما تعرفه من الوحى لأنه ــ وأشهد على هذا أبولون العزيز على زوس ذلك الإلاه الذى تستلهمه أنت نفسك يا كَلْخاس حينما تكشف للداناووسيين إرادة الملأ الأعلى ــ لأحد هنا مادمت أنا حيا ، ومادامت عيناى لم تغمضا ، لا أحد يجرؤ على أن يقدم إليك عنفاً فى داخل هذا المعسكر ، لا أحد بين جميع الداناووسيين[1] ولو كان ذلك الذى ستسميه هو أجامنون الذى له فخر أن يكون رئيس الأكيان[2] » .

إهانة أخيلوس أجامنون

وكما تظهر تلك العظمة فى هذه الحادثة هى كذلك تظهر عند ما يأخذ أجامنون فى التعدى عليه فيبدو أول الأمر معتدلا يتمسك بالعزة والكرامة ، ويكتفى بأن يلفت نظر أجامنون إلى ظلمه ، ولكن حينما يوجه إليه هذا الأخير التهديد ضمناً ينفجر غضبه الناشئ

(١) يطلق مؤلف الإلياذة على الهيلين تارة اسم الأكيان ، وأخرى اسم الأرجوسيين ، وثالثة اسم الداناووسيين ، لأن هذه الكلمات كلها تدل عنده على هذا الجنس الهيلينى دون إذعان إلى ماتوجبه الدقة .

(٢) انظر رقم ٨٥ إلى ٩١ من الأنشودة الأولى من الإلياذة .

من الكبرياء أولا ثم من شعوره بفقد ثمرة يعز عليه فقدها ثانياً . وسنترجم لك هنا نموذجين لتصوير هذين النوعين من الغضب ، فمثال النوع الأول الناجم عن الكبرياء مايلى :

« أيها السكير الذى يشبه الكلب فى مجونه ، والظبية فى جبنها ، إنك لن تجد فى نفسك الشجاعة أبداً على أن تلبس درعك لكى تنزل إلى حومة الوغى تقاتل فيها الشعب المحارب ، ولا على متابعة الشجعان من الأكيان فى مواجهة أخطار فخاخ الحروب ، لأنه يخيل إليك أن ذلك هو الموت بعينه ، نعم إن نهب ما لدى من يعارضك فى معسكر الأكيان الواسع لهو أسهل عليك .

هذا حسن ، إلتهم إذاً شعبك أيها الملك التهاماً مادمت تحكم رجالا لايساوون شيئاً لأن إهانة اليوم ـ ياابن أتريئوس ـ ستكون هى الأخيرة التى توجهها إلينا ، ولكنى أؤكد لك وأقسم على ماأؤكده بقسم كبير أن الأسف على أن أخيلوس لم يعدمعك سيلحق جميع أبناء الأكيان على بكرة أبيهم . وإذ ذاك ستحزن عبثا ، ولن تستطيع أن تداوى الألم حين يهوى عدد عظيم من الأكيان تحت ضربات هكتور سفاك المحاربين ويومئذ ستقضم قلبك فى صدرك مع الأسف على أن لم تقدر أشجع الأكيان جميعا[1] » .

وأما النوع الناشئ عن فقد الثمرة إذعاناً للطغيان تحت تأثير ظروف قاهرة فمثاله ما يلى :

« إنما من أجلك أيها الرجل الذى خلع العذار ، نعم من أجلك نحن هنا لكى نرضيك ، إنه الانتقام لمينيلاؤوس ، الانتقام لك أيها الوقح ، ذلك الذى نبغيه من التروادیين ، وها أنتذا ليس عندك فى هذا تفكير ولا به انشغال . وينبغى أن تهددنى بأن تنتزع منى أنت نفسك مكافأة تجشمت من أجلها عناء عظيما ثم قدّمها أبناء الأكيان إلىّ . ليست غنائمنا متساوية حينما يهدم جنودنا مدينة ثرية من مدن تروادة ، فذراعى هى التى تقوم بأشق مهمات الحرب العجوج ، ولكن عند مايجىء دور الاقتسام ، فإليك ترجع أعظم المكافآت ، وإلىّ أنا أضعف الغنائم ، ومع ذلك فأنا أتمسك بها[2] » .

---

(١) انظر الأنشودة الأولى من ٢٢٥ إلى ٢٤٤ .

(٢) انظر رقم ١٥٢ ومابعده من الأنشودة الأولى من الإلياذة .

بهر التروادیین بحسن هیلینیه

« من المؤكد أنه لاموضع للثورة إذا كان التروادیون والأكیان یعانون كل هذه الآلام منذ ذلك الوقت الطویل من أجل امرأة كهذه لأن وجهها شبیه بوجه إلاهة[1] » .

فإذا كانت هذه العبارات التی بلغت من الإعجاب بجمال هیلینیه هذا الحد قد صدرت عن الشیوخ فكیف بالشباب ؟ ! . لا ریب أنه إذا لمحها فقد وعیه وخانته قوته .

أسف هیلینیه

أما بعد تصویر هذا الحسن ، فأهم ما نستشفه من الإلیاذة عن هیلینیه هو إحساسها بالضجر والسآمة والشقاء لما سببته للفریقین المتحاربین من كوارث ونكبات ، وتمنیها أن لم تكن قد وجدت فی الحیاة ، أو كانت قد هلكت طفلة ، وشعورها بوضاعة پاریس وانحطاطه . وهاك نموذجاً من حدیثها عن هذه الأحاسیس مخاطبة هكتور .

« هكتور ، أیة أخت تجدها فیَّ ! إننی امرأة جریئة مسیئة مشئومة . آه ! . لماذا لم تقذف بی زوبعة مرعبة یوم ولدتنی أمی إلی أقصی الجبل أو بین أمواج البحر الهائج ؟ لماذا لم یبتلعنی الیم قبل أن یحدث كل هذا ؟ ! أو علی الأقل ـ مادام الآلهة قد صمموا علی غیر ذلك ـ لماذا لم یمنحونی أن أكون زوجة لرجل شجاع یعرف كیف یغضب و یشعر بالإهانة ، أماهذا فلیس لدیه أیة إرادة لا الآن ولا إلی الأبد ، و إن ضعفه سبَّبَ له أكثر من معرة . هلم ادخل عندنا أیها الأخ واجلس علی هذا المقعد ، لأنك ستتألم كثیراً بسببی أنا التعسة ، و بسبب غلطة پاریس . إن زوس قد قضی علینا بحظ محزن لكی نكون فی المستقبل موضوع الأناشید بین الأناسی[2] » .

---

(١) انظر رقم ١٥٦ وما بعده من الأنشودة الثالثة .

(٢) انظر رقم ٣٤٤ وما بعده من الأنشودة السادسة .

هناك عاطفة أخرى نلحظها بارزة عند هيلينيه وهى محبتها لـ « هكتور » وحنانها عليه وحزنها لموته . وسنرسم لك فيما بعد عبراتها التى سكبتها ملتهبة على جثته .

توسلات أندروماخيه إلى هكتور

« هكتور أيها المحبوب إن حماستك ستقضى عليك ، وليس عندك رحمة بابنك الذى لايزال أخرس ، ولا بى أنا التعسة التى سأكون عما قريب أيما ، وإن الأكيان سيقتلونك عندما يقذفون بأنفسهم عليك ويكونون جميعاً ضدك . آه ! إن من الخير لى إذا فقدتك أن أكون تحت الثرى ، لأنه متى لطمك القدر فلن يكون لى عزاء من بعدك ، ولن يكون لى شىء إلا الألم ! . إن والدى ووالدتى الجليلين قد ماتا . . . . ولكنك أنت ياهكتور لى أب وأم محبوبة وأخ ، وأنت زوجى الزاهر الشباب . أشفق علينا وامكث هنا فوق هذا البرج ولا تصير ابنك يتيما وزوجك أيما[1] » .

غير أن هذا الألم العنيف الذى يفيض من قلبها على وجهها ، ويترجمه لسانها فى أسلوب من الذعر والالتياع لايمحو من مظاهرها ذلك السمو الذى يزيد رشاقتها فتنة ، وجمالها سحرا . فمثلا حين ينقض على مسمعها نبأ قتل زوجها انقضاض الصاعقة تخر مغمى عليها فوق سور الحصن دون أن تبدو منها تلك الإشارات التى تُظْهِر الطبقات الدنيا بوساطتها ماتشعر به من حزن وألم .

أمنية هكتور لابنه الطفل

قبل هكتور طفله العزيز ومهده فوق يديه ودعا له لدى زوس والآلهة الآخرين بهذا الدعاء :

« يازوس ويا أيها الآلهة الآخرون اعملوا على أن يكون ابنى ـ كما أنا الآن ـ ماجداً

(١) أنظر رقم ٤٠٧ وما بعده من الأنشودة السادسة .

بين التروادیين ، قديراً شجاعاً مثلى ، وعلى أن يتملك بقوة على مدينة « إليوس » وأن يقال عنه يوماً وهو فى إحدى رجعاته من القتال : إنه ليفوق والده ، وأن يحمل أسلاب قتلاه تقطر منها الدماء ، وأن تتمتع به والدته تمتعاً نفسيا[1] » .

حقد أخيلوس على هكتور

إذا نظرنا إلى أخلاق أخيلوس التى استعملها مع السفراء فى الأنشودة التاسعة ألفيناها هى عينها التى ظهرت فى الأنشودة الأولى : بدياً وجه بشوش ، واستقبال كريم ، وحسن ذوق ، ورقة طبع على أن لا يتجاوز أولئك الضيوف حد الزيارة البريئة ، فإذا بدءوا يفاوضونه فى الصلح عاد غضبه عليهم ، ووجه إليهم سهام نقده وتعنيفه على صمتهم أمام حيف مليكهم الشره .

و إذا جاوزنا هاتين الأنشودتين إلى الأنشودة الثانية والعشرين ألفينا هذا البطل كما هو ثائراً خاضعاً للعاطفة والهوى خضوعاً تاماً ، ووجدنا شعور الانتقام لصديقه يملك عليه كل أحاسيسه بعد أن محا منها كل أثر لغضبه الأول الذى كان قبل هذه الحادثة يستعبده تمام الاستعباد . والآن إليك نموذجاً مما يوجهه إلى قاتل صديقه : « هكتور لا تحدثنى عن العهود المتبادلة بيننا ، فليس بين الوحوش الضارية و بنى الإنسان مواثيق ، وليس بين الذئاب والحملان تفاهم أو اتفاق ، وإنما الذى يوجد بين هذه الأنواع هو المقت والمقت دائما ، وكذلك بينى و بينك لا توجد صداقة ولا عهد ، إذ ينبغى أن يموت أحدنا وأن يرتوى من دمه أريس إلاه الحرب العنيد ، فهلم استجمع كل قواك ، وهات أعظم ما لديك من مقدرة ، لأن هذه الساعة هى أنسب الساعات لإجادة استعمال الحربة و إتقان القتال . إنه لم تعد لديك فرصة ممكنة للفرار من بين يدى ، فبلاس أثينيه ستخضعك لسيفى ، وستدفع مرة واحدة حِدَاد جميع أصدقائى الذين ذَبَحْتَهُمْ بيدك[2] » .

(١) أنظر الأنشودة السادسة من رقم ٤٦٦ إلى ٤٨٤ .

(٢) أنظر رقم ٢٦١ وما بعده من الأنشودة الثانية والعشرين .

توسلات پرياموس إلى أخيلوس

« فكر فى أبيك يا أخيلوس الشبيه بالآلهة ، فى أبيك الذى وصل مثلى إلى نهاية الشيخوخة المقدرة ، فمن الممكن أن يكون جيرانه الذين هم حوله يعذبونه الآن ، وليس لديه أحد يحميه من الخراب أو الموت ، ولكنه هو على الأقل حين يعلم أنك حى يستمتع فى قلبه ، بل يؤمل فى كل يوم أن يرى ابنه العزيز عائداً من تروادة ، أما أنا التعس فبعد أن أنجبت أبناء شجعاناً حقاً لن يبقى لى منهم واحد ، لقد كانوا خمسين حين جاء أبناء الأكيان ، منهم تسعة عشر من أم واحدة وهى « هيكوبيه » الملكة ، والآخرون ولدوا من حظايا القصر ، وأكثرية هؤلاء الأبناء ثنوا ركبهم تحت مجهود أريس القوى الحاد ، وذلك الذى كان يشغل موضع الجميع ـ لأنه كان يحمى المدينة ويحمينا جميعاً وهو هكتور ـ قتلته أنت حين كان يحارب دفاعاً عن بلاده ، ولأجله وحده جئت الآن إلى حرم السفن الأكيانية أريد أن أفتديه ، وقد أحضرت لهذا فداء جد عظيم ، فاحترم الآلهة يا أخيلوس ، وأشفق علىّ مفكراً فى أبيك ، فأنا أكثر منه استحقاقاً للشفقة . أنا الذى استطعت أن أفعل مالم يفعله أى مخلوق على الأرض ، وهو أن أمد إلى الفارس الذى قتل ابنى يداً ضارعة »[1] .

دموع هيلينيه على هكتور :

« هكتور : أنت الذى كنت عزيزاً علىّ من بين أشقاء زوجى . إننى زوجة ألكسندر پاريس الخارج من أصلاب الآلهة لأنه هو الذى أتى بى إلى تروادة ، لماذا لم أمت قبل هذا ؟ ها هى ذى السنة العشرون منذ غادرت بلادى وفى كل هذا الزمن لم أسمع منك قط كلمة جارحة أو نابية ، بل بالعكس كلما كلمنى كائن من كان فى القصر

(١) انظر الأنشودة الرابعة والعشرين من رقم ٤٨٦ إلى ٥٠٦ .

بجفاف أيا كان شأنه فإنك كنت تؤنبه سواء أكان أحد اخوة زوجى أم إحدى نسائهم أم إحدى شقيقاتك أم والدة زوجى لأن پرياموس كان دائماً لى كوالد حنون ، وكنت تحمينى بخيريتك ، وتواسينى بكلامك العذب . فلأجل هذا أنا أبكى عليك وعلى نفسى ، والقلب مفعم بحزن مرير ، لأنه لم يعد لى فى ترواده الواسعة أحد وديع وخيِّر كما كنت ، بل إننى ممقوتة من الجميع »[1]

٢ ـ من الأوديسا

أوديسوس متجها إلى نوسيكا :

« أتوسل إليك أيتها الملكة سواء أكنت إلاهة أم فانية ، فإذا كنت إلاهة من قاطنات السماء الواسعة فإنما يبدو لى أنك أرتيميس بنة زوس العظيم ، إذ أنك تشبهينها فى الجمال والقوام والرشاقة . وإذا كنت إحدى الفانيات الثاويات على الأرض فقد سعد بك والدك ووالدتك الجليلة وإخوتك ثلاث مرات . . . ولكن أسعد الجميع قلباً هو ذلك الذى يغمرك بهدايا الزواج ثم تزفين إلى داره . حقاً إن عينى لم ترى قَطُّ إنساناً أو إنسانة تماثلك فى الجمال . . . ومن ثم أنا معجب بك أيتها الغانية غاية الإعجاب ، ولا يسعنى إلاّ أن أقف أمام جمالك ذاهلاً مشدوها وأن أضطرب عندما أتشبث بقدميك متوسلاً متضرعاً ، وما ذلك إلا لأنى فريسة لألم عظيم ، فأمس وأمس فقط نجوت من البحر المظلم بعد أن قاسيت عشرين يوماً . . . وها هو ذا أحد الآلهة قد قذف بى إلى هنا لكى أحتمل آلاماً أخرى لأننى لا أعتقد أنى شاهدت نهاية الألم ، ولا أشك فى أن الآلهة سيستأنفون إرهاقى بآلام جديدة ، ولكن أنت أيتها الملكة أشفقى علىّ إذ أنك أنت أولى من اتجهت نحوهن بعد أن عانيت كل هذه البأساء وأنى لا أعرف أى واحد من سكان هذه البلاد . دلينى على المدينة وائتينى ببضع خرق لأستتر بها إذا كان لديك شىء مما تلفين فيه

---

(١) انظر رقم ٧٦٢ وما بعده من الأنشودة الرابعة والعشرين .

الملابس ، و إنى أسأل الآلهة أن تمنحك كل ما يشتهيه قلبك أى أن تمنحك زوجاً ومنزلاً ، وأن تضم إليهما الوفاق والوئام ، لأنه لا يوجد يقينا شيء أفضل ولا أدعى إلى السرور من التئام عواطف الزوجين فى إدارة منزلهما ، فـفى ذلك هناء لهما ولأصدقائهما ، وحزن وغم لحسادهما »[١] .

بين أوديسوس وشبح أخيلوس :

لم تعن الإلياذة بالحديث عن مقر الموتى أو بتصوير مملكة الجحيم ، و إنما عنيت بذلك الأوديسا عناية تلفت النظر ، فصورت لنـا أوديسوس وقد ذهب إليها والتقى فيها برفاقه ووالدته وجعل يحدثهم و يرد على ما يعرف من أسئلتهم بالإيجاب وعلى ما يجهل منها بالسلب ويستمع إلى شكاياتهم وتأوهاتهم ، و إليك شيئاً من هذه التأوهات :

« لا تحدثنى عن الموت يا أوديسوس الماجد ، فأنا كنت أفضل أن أكون حراثاً وأن أعمـل بأجر عند رجل فقير لا يكاد يملك قوتاً على أن آمر جميع الموتى الذين لم يعودوا فى الوجود ، ولـكن حدثنى عن ابنى الساطع هل يقاتل فى الصف الأول أولاً ؟ . قل لى ما علمته عن پيلوس والدى الذى لا عيب فيه هل لا يزال مستحوذاً على نفس الإجلال بين « المرميذون » أو أنهم يحتقرونه فى « هيلاّس » لأن يديه ورجليه قد أصبحت مغلولة بوثاق الشيخوخة . فى الواقع أننى لم أعد موجوداً هنالك لأدافع عنه تحت ضوء الشمس كما كنت فى الماضى أمام تروادة العظيمة حينما كنت أقهر أعظم الشجعان وأنا أقاتل فى صف الأكيان »[٢] .

---

(١) انظر الأنشودة السادسة من رقم ١٤٨ إلى رقم ١٨٥

(٢) انظر الأنشودة الحادية عشرة .

بين أوديسوس وشبح والدته :

ومن هذه المناظر المؤثرة منظر أوديسوس وهو يحاول معانقة والدته فلا يستطيع ذلك فيناجيها بهذه العبارات :

« تكلمت والدتى ، فأردت منفعلاً مضطرباً فى نفسى أن أعانق روحها ، فألقيت بذاتى عليها ثلاث مرات ، وفى هذه المرات الثلاث كانت تنمحى كأنها ظل شبيه بالحلم ، فنما فى قلبى ألم حاد وقلت لها هذه الكلمات العاجلة :

أماه ! لماذا لا تنتظرينى حين أشتهى أن أعانقك ؟ فلو أننا استطعنا أن نتعانق لهجرت قلوبنا الحزن حتى عند « أديس[١] » . ألست إلا خيالاً خلقته لى « پِرْسيفُنْيا[٢] » لأجل أن تزيد فى تأوهاتى ؟ . . .

هكذا تكلمتُ فأجابتنى والدتى بقولها :

« أسفاً يا بنى يا أشقى بنى الإنسان إن پرسيفنيا بنة زوس لا تهزأ بك ، ولكن هذا هو قانون الفانين حينما يموتون ، ففى الواقع أن الأعصاب لم تعد تسند اللحم ولا العظم ، وأن الروح تطير كأنها حلم فارجع سريعاً إلى نور الأحياء واذكر دائماً الأشياء التى قلتها لك »[٣] .

كيف تروى پينيلُپيا قصتها للمتسول :

« أيها الأجنبى ، من المحقق أن الآلهة سلبونى جمالى وميزتى منذ ذلك اليوم الذى ارتحل فيه الأرجوسيون إلى مدينة « إليوس » ومعهم زوجى أوديسوس ، لو أنه يعود

---

(١) أديس هو إلاه الجحيم وشقيق زوس .

(٢) پرسيفنيا هى زوجة أديس وهى من البشر وقد كلف بها أديس واختطفها ولها أسطورة شيقة سنمر بها فى حينها .

(٣) انظر الأنشودة الحادية عشرة .

ويحكم حياتى ليكون مجدى أعظم وأجمل ، ولكنى الآن أتأوه لأن شيطاناً خبيثاً يرهقنى بالآلام . هاهم أولاء الذين يحكمون فى الجزر المجاورة : « ساميه » و « ناكنتوس » المغطاة بالغابات ، و « دو للكيوس » وهؤلاء الذين يقيمون فى إيثاكيه الباردة المناخ نفسها ، كل أولئك وهؤلاء جميعاً يطلبون يدى رغم أننى ويخربون منزلى . . . . ولكننى آسفة على أوديسوس ، وأتأوه فى داخل قلبى ، وهؤلاء الأدعياء يستعجلون عرسى ، وأنا أبتدع لهم الحيل . فى مبدأ الأمر ألهمنى أحد الآلهة أن أنسج قماشاً عريضاً دقيقاً وأن أقول لهم على الفور :

« أيها الشبان مادام أن أوديسوس الإلاهى قد مات فأقلعوا عن استعجالكم عرسى إلى أن أتم هذا الكفن الذى أصنعه للبطل « لا إرتيس » حينما ينزل به الموت الذى لا يرق حتى لاتستطيع أية امرأة أكيانية أن تأخذ على أمام الشعب أن رجلاً كهذا كان يملك كل هذه الثروة قد دفن بدون كفن . هكذا قلت لهم فاقتنعت قلوبهم الساذجة بما قلت . وبناء على هذا كنت أنسج أثناء النهار فى هذا القماش ، فإذا جن الليل نقضت على ضوء المشعل ما نسجته ، وهكذا أخفيت حيلتى وخدعت الأكيان ثلاث سنين ، ولكن فى السنة الرابعة نبهتهم خادماتى ففاجئونى وهددونى ، ورغم إرادتى اضطررت إلى إتمام القماش . والآن لم أعد أستطيع تجنب العرس حيث لاأجد بعد أية حيلة ، وأهلى يدفعوننى إلى الزواج ، وابنى يحتمل بتضايق أن يلتهم أولئك الأدعياء ثروته التى يتمسك بها لأنه اليوم رجل ويستطيع أن يعنى بمنزله ، وزوس قد منحه المجد »[1] .

انتقام أوديسوس

« وكان الأدعياء يحسبون أن أوديسوس قد أصاب أنتينوس على غير قصد منه ولاإرادة ، ولم يكن أولئك المأفونون قد تنبهوا إلى أنهم قد هووا جميعاً فى قبضة الموت ، وحينئذ وجه إليهم أوديسوس الماهر نظرة وحشية وصرخ فيهم قائلا « أيها الكلاب إنكم

(١) انظر الأنشودة التاسعة عشرة

لم تكونوا تتصورون أننى سأعود يوماً من بلاد التروادين إلى دارى مادمتم قد عكفتم على تخريب منزلى وعلى الاعتداء على خادماتى بالعنف ، وجعلتم تطلبون يد زوجتى وأنا لا أزال على قيد الحياة دون أن ترهبوا انتقام الآلهة الذين يقطنون السماء الواسعة أو أن تحسبوا حساباً للوم الأجيال الآتية من بنى الإنسان ، والآن قد سقطتم جميعاً فى أحبولة الموت » .

و بينما كان أوديسوس ينطق بهذه العبارات شعر الأدعياء بالفزع يستولى على قلوبهم وأخذ كل واحد منهم ينظر مرتاعاً إلى ماحوله منقباً عن ثغرة يفر منها ليتجنب ذلك المصير الأسود المشئوم [1] » !

(ب) مصير الإلياذة والأوديسا

لم تكد هاتان الجوهرتان تتمان حتى أخذ الشعراء المتجولون ينشدونهما و يتغنون بهما فى كل مكان فتستقبلهما جميع المدن الهيلينية فى سرور وحفاوة ، ولكن مدينة أثينا قد بلغت فى تقديرهما مبلغاً لم تبلغه مدينة أخرى ، إذ وصلت عنايتها بهما إلى حد أن وضع سولون أحد الحكماء السبعة قاعدة تكفل صحة تلاوتهما . وفى نهاية القرن السادس قبل المسيح أعلن الأثينيون النصوص الرسمية لهاتين الفريدتين لكى لايفقد منهما شىء ولايمتزج بهما دخيل .

وفى القرن الرابع ألّف أرسطو لهما شرحاً قيما ولكنه فقد ، وفى القرن الثالث اشتغل أكابر النحويين فى الاسكندرية بتقسيم كل واحدة منهما إلى أربع وعشرين أنشودة — كما أشرنا إلى ذلك آنفا — ليسهل فهمهما وحفظهما والاستفادة منهما . وفوق ذلك فقد كتبوا عليهما شروحاً وتعليقات وملاحظات ، ونقدوا مواضع الضعف فيهما ونصوا على القطع التى هى فى رأيهم ليست لهوميروس . وقد بقيت بعض هذه الملاحظات إلى الآن ، إذ كشف العالم الفرنسى « فِلْوازون » فى مدينة البندقية نسخة من الإلياذة عليها شرح وتعليقات لأحد أولئك العلماء .

---

(١) انظر الأنشودة الثانية والعشرين من رقم ٣٠ إلى ٤٥ .

وفى القرن الثانى عشر بعد المسيح كتب العالمان الإغريقيان « تزيتزيس » و « استاثوس » ـ وهو أسقف مقاطعة « تيسالى » ـ شرحين جليلين أولهما للإلياذة وحدها ، وثانيهما للإلياذة والأوديسّا معاً .

وفى القرن السادس عشر بدأت عناصر الشك فى نسبة هاتين الدرتين إلى هوميروس تتسرب إلى الأذهان وأخذ الجدل إن حقاً وإن باطلا يحتدم حول تكونهما كما أبنا ذلك فى مواضعه .

وينبغى أن نعلن هنا أن هذا الجدل لم يكن عبثا ، لأن الفكر البشرى يستفيد دائماً من النقاش ، إذ هو الذى يدفع المتجادلين إلى الدراسة العميقة . لهذا كانت نسبة هاتين القصيدتين إلى هوميروس أو إلى غيره من المشاكل الأدبية التى أفادت الحركة العقلية فائدة لايجحدها أحد من المثقفين .

تأثيرهما فى العالمين القديم والحديث

قد لا يكون من المغالاة أن نعلن أن جميع العصور التى تلت عصر الإلياذة والأوديسا فى العالم القديم قد استلهمت جانباً عظيماً مما أنتجته من جمال ودقة وفن من هاتين القصيدتين، إذ منهما اقتطع المغنون فى العصر الموسيقى أغانيهم الفاتنة وأناشيدهم الساحرة ، ومنهما استلهم هيروذوتوس فكرة وضع التاريخ على النحو الذى وضعه عليه ، ومنهما اغترف «إسْخيلوس» و « سوفكليس » و « أوربيذيس » أصول كثير من مآسيهم الخالدة ، وعناصر مسرحياتهم القيمة ، ومنهما استوحى الفنانون كل مارسموه ونحتوه من صور وتماثيل خالدة على الدهر ، بل حدثنا التاريخ أن فِدْياس أكبر فنانى العصر الأثينى مدين بتمثاله المتقن الفاتن الذى صنعه لزوس ، لبيت واحد من أبيات الإلياذة ، وبالإجمال : إن كثيراً من « الميتولوچيا » والمعلومات السياسية والاجتماعية الإغريقية مستقى من هاتين الخريدتين ، ولهذا قال أفلاطون فى الجمهورية : « إن هوميروس هو معلم الهيلين[1] » .

(١) انظر الكتاب العاشر .

فإذا ثبت هذا عن ثانى أجلاء فلاسفة الإغريق ، فلا أحسب أنه قد بقى بعد ذلك مجال للشك فى قوة أثر هاتين القصيدتين فى العقلية والفن والآداب الهيلينية فى العصرين : الدريانى والأثينى ، وليس أدل على ذلك من تقديس هوميروس كأحد الآلهة .

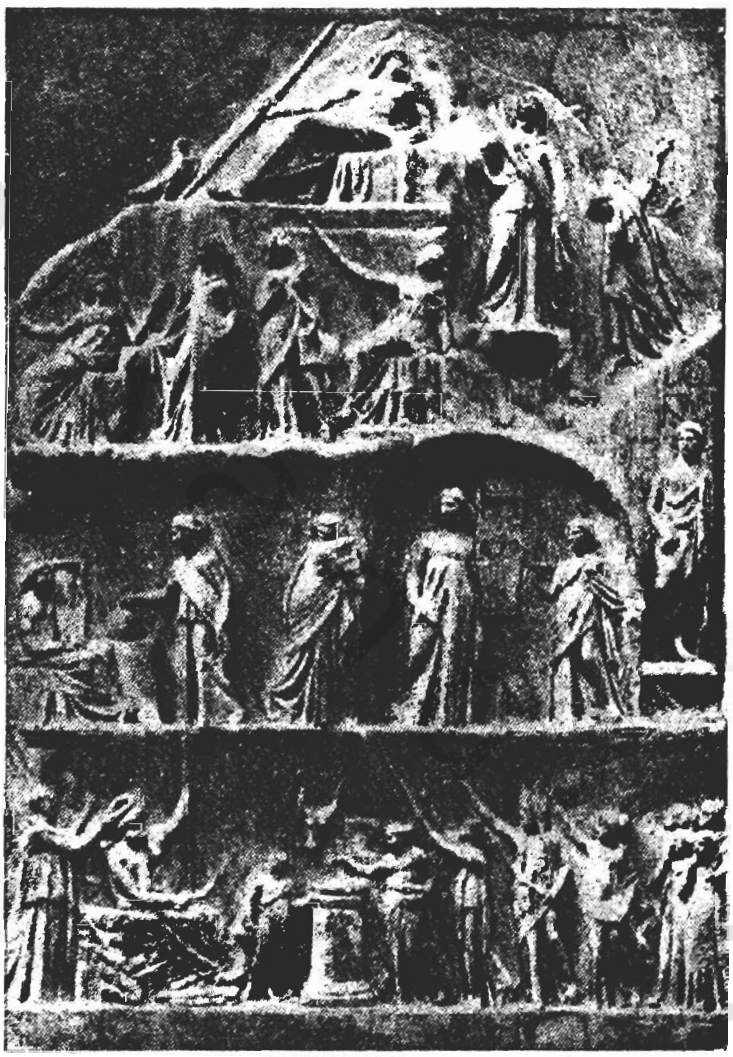

[ألصورة رقم ١٧ هى رسم بارز من عمل الفنان أرخيلاؤوس البريئينى ، وقد عثر عليها فى إيتاليا الجنوبية ، ويرى فى أسفل الصورة عدد من بنى الإنسان يهتفون باسم هوميروس ويقدمون إليه الضحية على نحو ما كانوا يصنعون لآلهتهم ، ويبدو منظر الضحية أمام المذبح المقدس ، كما تشاهد إلاهة الشهرة وهى تضع تاجاً على رأس الشاعر ذى الشعر الأبيض ، وفى أعلى الصورة ترى عرائس الشعر فى صفين عند قمة جبل البرناسوس وفى يد إحداهن مزهر .]

أما العصر الاسكندرى فقد مر بك انشغال العلماء والمدارس فيه بهاتين الدرتين . وأما العصر لرومانى فسنوجز لك رأى أحد أدبائه فى مؤلف الإلياذة والأوديسا ، لنضع بين يديك صورة من

آرائهم فيه ، وهاك هذا الرأى : « إن هوميروس هو الأول والوسط والنهاية لكل طفل وشاب وشيخ ، لأنه يعطى من أعماق عبقريته لكل واحد منهم الغذاء الذى هو فى حاجة إليه » .

أما فى عصر النهضة فلم تكد الحركة الأدبية تنتعش وتنشط من عقالها حتى هب المتأدبون يترجمون المؤلفات الإغريقية و بينها درتا هوميروس فنجم عن ذلك أن تغلغلتا إلى جميع اللغات الحية ، وترجمتا إلى كل لغة منها عدة ترجمات بعضها سطحى و بعضها عميق نوعاً ما .

ولما ارتقت الثقافة فى العصور الحديثة وأتقن الأدباء اللغة الإغريقية راجعوا الترجمات الأولى ووازنوا بينها و بين الأصل فتبين لهم مافيها من أخطاء حملتهم على الحكم بعدم كفايتها ووجوب القيام بغيرها أدق منها فوضعوا ترجمات أخرى بعضها شعر و بعضها نثر . فمن ذلك فى فرنسا مثلا أن الأستاذ « سنت هلير » قد ترجم الإلياذة فى شعر فاتن جذاب ، وأن « الكُنْت دى ليل » قد ترجم القصيدتين فى نثر أمين دقيق ، وأسلوب رصين رشيق . وهذا عدا ترجمات أخرى صنعت لطلاب المدارس ولم يوقع عليها أصحابها ، وهى قيمة دقيقة رغم عدم تذييلها بتوقيعات مشهورة .

أما أثرها فهو يجل عن الوصف و يدق عن التصوير ، و بالإيجاز : كل شاب لم يتأدب بالأدب الهيلينى عامة و بالإلياذة والأوديسّا خاصة يعتبر فى الدول المعنية بالأدب ناقص الثقافة ، قاصر التهذب ، وفى نظر الأدباء المتخصصين يعتبر نصف أمّى . و يرى هؤلاء العلماء المحدثون أن كل دراسة للآداب الهيلينية المؤلفة فى العصور التى تلت عصر هوميروس غير ممكنة بدون دراسة منتجات هذا الشاعر ، لأن هذه المنتجات هى أساس كل تلك الثروة الهائلة . وفى هذا يقول الأستاذ « هنرى و بى » : « إن هوميروس هو أبو اللغة الإغريقية ، فمن الخير لمن أراد دراسة هذه اللغة أن يحفظ مؤلفاته عن ظهر قلب ، لكى يفهم جيداً كل المؤلفين الذين كتبوا بتلك اللغة » .